الإعلاميَّة وأثرها في تلقي الخطاب القرآني دراسة في بلاغة الإقناع

أ.م. باسم كريم مجيد أ.د. يعرب مجيد مطشر
جامعة ذي قار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

Uaername:Bassamkaream@utq.edu.iq

الملخص :

يسلط البحث الضوء على معيار الإعلاميَّة التي تتعلق بالمعلومات الواردة في النص من حيث توقع هذه المعلومات أو عدم توقعها ، أو المعلوم في مقابل المجهول وأنَّها العامل المؤثر بالنسبة إلى عدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة ، أو الوقائع في عالم النص في مقابل البدائل الممكنة ، إذ تكون الإعلامية عالية الدرجة عند كثرة البدائل .

وتعدُّ الإعلامية إحدى معايير النصية التي أقرتها الدراسات النصيّة الحديثة في سعي منها لإيجاد قواعد وأسس إنتاج النص وتلقيه ، إذ ترتبط الإعلامية بإنتاج النص واستقباله لدى المتلقي ، ومدى توقعه لعناصره ، ويقصد بالمتلقي في هذا البحث هو متلقي الخطاب القرآني على وجه الخصوص ؛ لما إنماز به هذا الخطاب المبارك من إعلامية عالية ذات كفاءة تفوق سائر النصوص الأخرى على وجه الإطلاق ، وهذا ما يدعم إعجاز القرآن الكريم .

من هنا يسعى البحث إلى إبراز إعلاميَّة النص القرآني، وبيان أثرها في متلقيه عبر محورين اثنين من محاورها وهما : (استعمال الغريب من الألفاظ، وأسلوب الالتفات(العدول)) لما فيهما من قدرة على كسر ما هو متوقع ومخالفة ما هو مألوف في التعبير، وذلك ما يعمل على استمالة المتلقي للتأمل والتدبر في النص القرآني مما يحقق عنده مبدأ القبول.

الكلمات المفتاحية: (الإعلاميَّة ، تلقي الخطاب القرآني، بلاغة الإقناع).

The media and its impact on receiving the Qur'anic discourse, a study in the rhetoric of persuasion

Dr. Yarob Majid Mutashar biasm karim majid
Dhi Qar University/ College of Education for Human Sciences

Abstract:

The research highlights the informative standard which is concerned with information in the text according to expectation of information or not. The active information opposite the passive one. This affects the judgment of the text. The informative standard will be in high level with options. It considers one of the standard in modern texts to find the basis of the (Nasib). It is related with the listener. The listener is a person who listens to Quranic speech. This speech is recognized with high specialty more than other texts.

The research tries to highlights the informative of Quranic text and its effect on listeners through two aspects. Firstly, the use of odd pronunciation. Secondly, recantation style. They are infamiliar to attract the listeners to meditate in Quranic texts.

Keywords: (media, receiving the Qur'anic discourse, rhetoric of persuasion).

الإعلاميَّة : (Informativity)

تعدُّ الإعلاميَّة أحد المعايير النصيّة المهمة التي أقرَّتها الدراسات النصيَّة الحديثة في سعيها لإيجاد قواعد وأسس لإنتاج النص وتلقيه ، وتكمن أهميتها في أنَّها تتناول ((مدى التوقع الذي تحظى به وقائع النص المعروض في مقابل عدم التوقع أو المعلوم في مقابل المجهول))[١]، وهذا المعنى هو ما أشار إليه (دي بوجراند) _الذي أعدَّ هذا المعيار المعيار السابع من معايير النصية_ بقوله : ((إنَّ إعلامية عنصر ما تكمن في نسبة احتمال وروده في موقع معين (أي إمكانه وتوقعه) بالمقارنة بينه وبين العناصر الأخرى من وجهة النظر الاختيارية ، وكلما بعد احتمال الورود ارتفع مستوى الكفاءة الإعلامية))[٢].

ولعل هذا المعنى موافقاً لما نصَّ عليه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بقوله : ((إنَّ الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع))[٣].

إذن فالإعلاميَّة من وجهة نظر النصيين وفي مقدمتهم (دي بوجراند) تكمن في النظر إلى هذا المعيار لا من حيث أنَّه يدلُّ على المعلومات التي تُشكل محتوى الاتصال ، وإنَّما بدلالتها على ناحية الجدة أو التنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف ؛ فالإعلاميَّة في أي عنصرٍ إنَّما تكمن في قلة احتمال وروده في موقع معين بالمقارنة بالعناصر الأخرى في النص نفسه ((فكلما كان هناك ابتعاد عن التوقع وكثرة المعتاد والمألوف ، زادت الكفاءة الإعلاميَّة))[٤].

وعلى هذا تكون الإعلامية بحسب ما يراه النصيون تحمل مفهومين هما[٥] :

الأوَّل : يتمثل بالقيمة الخبرية للنص وما يحمله من مضمون الرسالة .

الثاني : هو كسر المتوقع ومخالفة المعتاد في المضمون أو الصياغة ، فالإعلامية عندهم تركز على المعلومات التي تصدم المتلقي وتخالف توقعاته ، إذ هي كسر توقع المتلقي للنص من حيث الدلالة أو الصياغة[٦]، وبذلك يكون النصيون قد ضيّقوا مفهوم الإعلامية وحصروها في عدم التوقع ؛ لأنَّ الإعلامية في مفهومها العام لها ثلاث دلالات هي[٧]:

أ_ المفهوم العام للإعلامية وهو أنَّ كلَّ النصوص يجب أن تقدم خبراً ما وربما النصوص كلها تشترك في هذه الوظيفة .

ب_ يمثل هذا المفهوم ما قصده (دي بوجراند) من الجدة في المعلومات وعدم التوقع.

ج_ وينطلق هذا المفهوم من فكر الدعاية إيجاباً أو سلباً ، لشخص ما أو لفكرة ما أو لمذهب ما .

وعلى هذا التقسيم يثبت لنا أنَّ المفهومين الأول والثالث يتعاملان مع الإعلامية من دون النظر إلى الجانب الإبداعي للنصوص ، فما دامت هذه النصوص تؤدي دورها في الأخبار أو الدعاية فهي نصوص إعلامية[٨]، أما من وجهة نظر (دي بوجراند) فهو يرى أنَّ الإعلامية هي ((العامل المؤثر بالنسبة إلى عدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة ، أو الوقائع في عالم النص في مقابل البدائل الممكنة ، فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل ، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال))[٩].

ومن هنا نستطيع القول إنَّ مستوى الكفاءة الإعلامية للنصوص يتناسب مع الجدة وعدم التوقع وحِدة المفاجأة التي تحدثها الإعلامية ، فكلما خرج النص عن النمط المألوف في الصياغة أو المضامين، ومنح متلقيه بدائل كثيرة غير منتظرة كان وقعه في النفس أعمق وكفاءته الإعلامية أرفع ، وكلما التزم بالطابع النموذجي انخفضت إعلاميته ؛ وذلك ((أنَّ قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حِدَة المفاجأة التي تحدثها تناسباً طردياً ، بحيث كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المستقبل أعمق))[١٠].

ولكن ممَّا يجب التنبيه له هو أنَّ درجة الإعلامية المرتفعة للنصوص من شأنها أن تؤدي أحياناً إلى استعصاء تلك النصوص واستغلاقها على الفهم عند المتلقي ، ومن ثمَّ تكون عامل عزوف لا عامل تأثير وتحفيز في النص وهذا ما قد يقود إلى رفض النص[١١]؛ إذ قد ((يصل ذلك إلى الألغاز التي تهدم الجسور بين النص والمتلقي))[١٢]، ولكن هذا الأمر أيضاً هو ما تنبه له (دي بوجراند) فوضع له بعض

الآليات التي يمكن الاستنجاد بها لخفض كفاءة الإعلامية إذا ما واجه المتلقي عناصر غير متوقعة في النص وصعب عليه فكَّ شفراتها ومن تلك الآليات(١٣) :

الأولى : تخفيض رجوعي : وهو أن يرجع المتلقي إلى الوراء داخل النص إذا كان ما يفسر المبهم سابقاً عليه .

الثانية : تخفيض تقدمي : وهو أن يكمل النص حتى يحصل على ما يفسر سابقه.

الثالثة : تخفيض خروجي : ويتمُّ ذلك بالخروج من نطاق النص واللجوء إلى أحد عناصر السياق لتفسير ما استغلق عليه فهمه .

والذي يتضح ممَّا ذُكر أنَّ هذا المعيار يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمنتج ، وبإنتاج النص وبالمتلقي من جهة ، وبالمعارف المتعلقة بالعالم المحيط بالنص من جهة أخرى ، ولعل هذا ما يثير المتلقي ويؤثر فيه ؛ لأنَّ الإعلامية تستهدف التأثير فيه وبإثارة انتباهه(١٤). ذلك أنَّ الإعلامية تعدُّ ((أحد معايير كينونة النص ، وترمي هذه النظرية إلى الكشف عن مدى تفاعل المتلقي مع عناصر النص غير المتوقعة ، انطلاقاً من تصور مؤداه أنَّ النص الجيد يحقق مقاصد منتجة ، وينال قبول المتلقي ويستحوذ على إعجابه وذلك لارتفاع درجة الإعلامية فيه))(١٥)، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا المعيار يرتبط بمرسل النص وبمتلقيه ((فالمتلقي يبدي اهتماماً أكبر بالنص عندما يواجه بعناصر جديدة غير متوقعة تدفعه إلى أن يستجمع قواه ، ويستفرغ جهوده للوقوف على ما يكتنفها من طرفة وحِدة وغموض ، فكلما تضمن النص قدراً من العناصر غير المتوقعة ارتفعت درجة الإعلامية))(١٦).

كما أنَّ للإعلامية أهمية كبيرة في تحقيق الترابط بين أجزاء النص بعضها ببعض مما يؤدي ذلك الترابط إلى انسجام النص ؛ إذ ((قد يكون في بعض المواضع

درجة الإعلامية عالية ، ولا يمكن للمتلقي استقبال النص مجرداً عمَّا حوله ؛ لذلك يبدأ بالبحث عن مفاتيح ما استغلق عليه من مفاهيم فيبدأ بما هو داخل النص ، فأمَّا أن يعود أدراجه إلى ما قبل هذا الموضع الغامض ، ويبحث فيه عمَّا يمكن أن يساعده في فكّ شفرة الجزء الحالي أو ينتظر الجزء القادم من النص عسى أن يكون هو المفتاح لما غمض ، ومن هذا يتحقق الترابط النصي ، أي البحث اللاشعوري عن معاني ودلالات جزء من النص في باقي أجزائه الأخرى))[١٧]، فالإعلامية تجعل المتلقي يقوم بمحاولة استرجاع معلوماته بأعمال الفكر وإيقاظ الذهن للكشف عن خفايا النص وأسراره ممَّا يؤدي ذلك إلى استمرارية النص في إيصال المضمون ونقله ، ومن هنا تظهر أهمية الإعلامية وجعلها إحدى المعايير التي ارتكزت عليها النصيّة.

وعطفاً على ما سبق ذكره يمكن القول إنَّ الإعلامية هي ذلك النص الذي يجب أن يحتوي على معلومات ومعانٍ يتمُّ إيصالها إلى المتلقي ، وتلك المعلومات يجب كذلك أن تمتاز بالجدة وحدة المفاجأة وكسر التوقعات ، وإنَّ الهدف الأساس لهذا المعيار هو الكشف عن مدى تفاعل المتلقي مع عناصر النص غير المتوقعة ، فعادة ما يبدي المتلقي اهتماماً كبيراً بما يجده من حده وإبداع ومخالفة للتوقعات على مستوى صياغة النص أو مضمونه _من انزياحات وعدولات وغيرهما_ وهذا ما يوجه اهتمام المتلقي بالنص ، أمَّا الأمور البديهة والنسج الرتيب للنص فأنَّه يولِّد الملل لدى المتلقي ((ويمكن أن يدفعه إلى الانصراف عن مثل ذلك النص ، فالمقدار المناسب من المعلوماتية في النص المعتمد على المقصد والتوقع والموقف يشكل بذلك عاملاً نصيَّاً أساسياً ويكون مقدار التواصل))[١٨].

الإعلامية في الخطاب القرآني :

تنوعت خطابات القرآن الكريم تنوعاً لا حدود له ، واتخذت أشكالاً بنائية وموضوعية وفيرة ، والإعلامية واحدة من الإمكانات الأسلوبية التي وظَّفها الخطاب المبارك متخذاً منها وسيلة للتأثير والإقناع ؛ وذلك لما تمتلكه من وظائف خطابية تدعو المخاطب أو القارئ أن يربط نفسه بها أشد ما يكون الربط ؛ وذلك ما يقود إلى فهم أفضل لتركيب النص وطبيعته الخاصة .

وبما أنَّ معيار الإعلامية يعتمد على الجدة والغرابة ، والإتيان بعناصر مفاجئة وغير متوقعة في النصوص هدفها التأثير في المتلقي ؛ وذلك لأنَّ النفس إذا أنست بالمعتاد فربما قلَّ تأثرها له وغير المعتاد ينبؤها بما لم يكن به لها استئناس ، وذلك اشد استيلاء على النفوس وتمكنا من القلوب[١٩].

من هنا يجد المتدبر للخطاب القرآني الشريف أنَّ بعض آياته حافلة بمعلومات وتنبؤات ومفاجآت لا يمكن الوصول إليها إلَّا بعد تمعن وتدبر دائبين ، فالمتأمل في الخطاب القرآني سيجد توافقاً ملحوظاً بين مفهوم الإعلامية القائم على المفاجأة والتأمل وكسر التوقعات ، وبين طبيعة النص القرآني الذي يدعو باستمرار إلى إعمال الفكر والعقل بالتفكر والتأمل والتدبر ، فيما تضمنه من صور الانزياحات أو العدولات عمَّا ألفه الناس من أساليب التعبير وأنماط الصياغة وكل ذلك لأهداف وغايات مقصودة .

وإذا كانت دراسة الإعلامية على المستوى اللغوي العام من الأهمية بمكان ، فأنَّ دراستها في لغة القرآن الكريم بخاصة تعدُّ عظيمة الشأن كبيرة القدر ؛ كون ((القرآن الكريم رسالة سماوية ذات أبعاد إبلاغية وإعلامية عالية الكفاءة ، لتناولها مفاهيم جديدة ومهمة واعتمادها على التأثير والإقناع))[٢٠].

من هنا عمد الخطاب القرآني المبارك في بعض نصوصه إلى الخروج عن المألوف وكسر ما هو سائد ومتوقع عند الناس بمظاهر متعددة منها :

١_ استعمال الغريب من الألفاظ :

الغرابة هي إحدى خصائص الإعلامية وأدواتها ؛ وذلك أن ما لا يتوقع دائماً يتصف بالجدة والغرابة والفرادة ومخالفة المألوف ، فكلما كان عنصر ما غريباً كان أعجب وغير متوقع وأعظم تأثيراً في المتلقي ؛ ذلك أنَّ ((الناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البعيد وليس لهم من الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى ، مثل الذي لهم في الغريب القليل النادر))[٢١].

والغريب من الكلام في لغة العرب يقال به على وجهين : أحدهما : أن يُراد به بعيد المعنى وغامضه ، وما لا يُتناوله الفهم إلَّا عن بعد ومعاناة فكر ، والآخر : كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب ، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها ، وإنَّما هي من كلام القوم وبيانهم[٢٢].

أمَّا الغريب في القرآن الكريم فهو من النوع الأول وهي : الألفاظ القرآنية التي يُبهِم معناها على القارئ والمستمع ، وتحتاج إلى توضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم[٢٣]؛ وذلك أنَّ ((لغات القرآن العزيز على قسمين : قسم يكاد يشترك في معناه عامة المستعربة وخاصتهم كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت ، وقسم يختص بمعرفته من له إطلاع في اللغة العربية وهو الذي صنف أكثر الناس فيه وسموه : غريب القرآن))[٢٤].

إذن في القرآن الكريم ((ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب وليس المُراد بغرابتها أنَّها نكرة أو نافرة أو شاذة ، فأنَّ القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه

وإنَّما اللفظة الغريبة ههنا التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس))[٢٥].

من هنا يتضح أنَّ المُراد من الغريب في القرآن الكريم ما كان بعيد المعنى غير مألوف يحتاج في فهمه وبيانه إلى إعمال الفكر ويقظة الذهن ، بما يتضمنه من غموض ومن جدة وحدة المفاجأة ، ولذلك عُدَّ الغريب من الأدوات التي يلجأ إليها منتج النص لإنقاذ خطابه من الرتابة والابتذال ، وهو بذلك يمنح خطابه درجة عالية من الإعلامية التي تكفل يقظة المتلقي وتستدعي حضوره الذهني حتى يتمكن من النص والوقوف على أهدافه وغاياته .

فالغرابة إذن تؤدي إلى كسر المتوقع وتضفي على النص صفة الجدة وهذا ما يمثل مظهراً من مظاهر الإعلامية ، وعنصراً من عناصر الإبداع في الخطاب ، من هنا تضمن الخطاب القرآني لآيات الخلق جملة من الألفاظ الغريبة التي وظّفها توظيفاً بمنتهى الروعة والبيان لتسترق بذلك أسماع المتلقي وتستهوي نفسه وتأخذ مآخذها منه بعد تدبر وتأمل لها بإمعان وروية ، ومن ذلك وروده لفظة (أغطش) في قوله تعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا۝وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧_٢٩].

يرى بعض المفسرين أنَّ (أغطش) من مرادفات (أظلم) وأنَّهما بمعنى واحد ، إذ المعنى _حسب رأيهم_ في قوله (أغطش ليلها) : أظلم ليلها ، أي جعله مظلماً[٢٦]، وهذا في الواقع ما لا ينسجم مع ما انماز به الخطاب القرآني من الدقة في اختيار ألفاظه ووضعها في المكان المناسب لها بأدق صورة ذلك الأمر الذي بات سراً من أسرار تعبيره المعجز ، من هنا يرى المتأمل بين اللفظتين أنَّه لا ترادف بينهما، وإنَّما جاء الخطاب المبارك بلفظ (أغطش) ، للإشارة إلى معانٍ لا تؤديها كلمة (أظلم)

؛ لأنَّ (((أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة ، ولا يفيد هذا المعنى كلمة (أظلم) إذ هي تعبر عن السواد الحالك ليس غير))[٢٧].

فاللفظ من الألفاظ الغريبة التي تشعر بالوحشة والتي تنبو منها الأسماع فلذلك قلّ استعمالها في لغة العرب ، وقد جاءت في هذا الموضع لتختزل التعبير عن مشهد مظلم خيم عليه الصمت وعمَّ فيه الركود وبدت عليه مظاهر الوحشة ، فهي في غرابتها جاءت في موضعها على أحسن ما يمكن أن تأتي عليه الألفاظ[٢٨]، وعليه فأنَّ غرابة هذه اللفظة ومدى توظيف الخطاب المبارك لها ووضعها الوضع المناسب لها ، يجعل المتلقي قريباً من استشعار تلك المعاني التي اكتنزتها لفظة (أغطش) ، ثم أن ما يحمله هذا اللفظ الغريب من معانٍ غامضة غير واضحة إلَّا بعد تدبر وتأمل وضع المتلقي في حالة الصدمة والدهشة لما تضمنه هذا اللفظ ، وهذا ما حقق للنص قدراً كبيراً من الإعلامية ؛ وذلك لأنَّ ((المعلومة إذا قُدمت بشكل واضح للمتلقي عندها تنخفض درجة إعلامية النص ويكون أقل إعلامية أما إذا تركت المعلومة لحدس المتلقي فأنَّ درجة إعلامية النص ستكون مرتفعة ويكون النص أكثر إعلامية))[٢٩]، وهذا ما تحقق في النص إذ إنَّ الإعلامية فيه تمثلت في غرابة اللفظ وما تضمنه من معانٍ أضفت على النص صفة الجدة وحدة المفاجأة وكسر ما هو متوقع عند المتلقي ، بمجيء هذا اللفظ الغريب قليل الورود ؛ لأنَّ إعلامية أي عنصرٍ إنَّما تكمن في قلة احتمال وروده في موضع معين بالمقارنة بالعناصر الأخرى في نفس النص[٣٠].

إذن في النص المبارك كسر للرتابة وعزوف عمَّا هو مألوف في التعبير واللجوء إلى ما هو غير متوقع وكل ذلك لغايات فنية وجمالية ونفسية تهدف إليها

الإعلامية ، كالإثارة الذهنية والتشويق العقلي ولفت الانتباه لجذب المتلقي وتحقيق الأثر الكلي للنص ؛ ذلك أنَّ الإعلامية تستمد أهميتها ((من كونها تحدث صدمة قرائية أو هزة صوتية غير متوقعة عند القارئ أو السامع ... لأهداف جمالية ودواعٍ فنية))[٣١].

ومثل ذلك ما ورد في استعمال كلمة (أحوى) في قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:١_٥].

من الألفاظ الغريبة الأخرى التي استعملها الخطاب المبارك هي لفظة (أحوى) والمُراد بـــ(((أحوى) أسود من قِدَمِه واحتراقه[٣٢] وعلى هذا يكون المعنى في قوله تعالى: ((﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي : أسود لأنَّ الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار وتعفن فصار أحوى. وقيل : أحوى حال من المرعى ، أي أخرج المرعى أحوى ، أي للسواد من شدة خضرته ونضارته لكثرة ربه))[٣٣].

فكلمة (أحوى) تعدُّ من غريب القرآن والمعنى أنَّه تعالى أخرج المرعى مخضراً ثم تأتي عليه الشمس والرياح والأمطار فيتحول إلى غثاء أحوى ، وأحوى شديد السواد ، بمعنى أنَّه يتحول إلى غثاء يابس ومع الوقت يتحول إلى لون أسود ، وكذلك الأخضر الشديد الخضر يميل إلى السواد يسمى أيضاً أحوى ، ومن هنا كانت العرب تصف المرأة الجميلة إذا كانت شفاهها تميل إلى السواد خلقة بأنَّها حواء وعلى هذا المعنى جاء قول ذي الرمة[٣٤]:

ما بالُ عَينِكَ مِنها الماءُ يَنسَكِب ..... كَأَنَّهُ مِن كُلى مَفرِيَّة سَرِبُ

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ .... وَفِي اللثاثِ وَفي أَنْيَابِها شَنَبُ

يريد بقوله (حوة) أي شديدة السواد من الشفايف من الجمال خلقة ، وعليه يكون قوله: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي أسود شديد السواد يعني : أنَّ هذا النبات الذي يتحول إلى غثاء يبسا وتذره الرياح وتحرقه حرارة الشمس يتحول إلى شديد السواد ، فكلمة (أحوى) هنا هي لون من الألوان ، ومن هنا قيل سميت حواء حواءً لما في شفائفها من لحوة وهو السواد[٣٥].

فاللفظة إذن من الألفاظ الغريبة في الاستعمال القرآني ، وفي استعمالها خروج عن المألوف وهذا الخروج مقصود الغرض منه كسر أفق التوقع لدى المتلقي ، وهذا ما يحقق للنص إعلامية عالية ؛ لأنَّ (غير المتوقع) هو المسؤول عن إحداث المفاجأة التي تساعد المتلقي على التواصل مع النص والحرص على استبصار مكوناته ، ومن هنا تبرز أهمية النص بالنسبة للمتلقي وتجعله يتفاعل معه ؛ لأنَّ ((أهمية النص لا تتبع من كونه نصاً إخبارياً ينقل لنا كماً من المعلومات ... وإنَّما مهمة النص أن يجعلنا نتفاعل معه ، ونستلهم منه أشياء جديدة تكسر توقعنا وتزيد من إعلامية النص))[٣٦].

ومن ذلك أيضاً استعمال لفظة (إفكاً) في قوله تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٦_١٧].

اختلف أهل التأويل في بيان قوله تعالى : (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) فقال بعضهم : وتصنعون كذباً ، وقال آخرون : وتقولون كذباً ، وقال آخرون : بل معنى ذلك وتنحتون إفكاً أي تصنعون أصناماً وهي الأوثان التي ينحتونها بأيديهم[٣٧]، ثم ذكر

الطبري (ت٣١٠هـ) أنَّ ((أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : وتصنعون كذباً ... فتأويل الكلام إذن : إنَّما تعبدون من دون الله أوثاناً وتصنعون كذباً باطلاً))[٣٨].

فالإفكُ في النص المبارك يحمل معاني أشهرها (الكذب) بل قيل : ((الإفكُ : أسوأ الكذب))[٣٩]، وهي من الألفاظ الغريبة في الاستعمال القرآني ، وقد جيء بها في هذا المقام على غرابتها لملاءمتها السياق ؛ إذ السياق سياق تعجب وهو تعجب من حالهم ، فبدلاً من أن يعبدوا من خلقهم إذا بهم يخلقون ما يعبدونه ، وهي صورة تدعو إلى العجب ، فإبراهيم (عليه السلام) يقول لهم : إنكم تعبدون أوثاناً وتخلقون كذباً وباطلاً[٤٠]، فاللفظة على غرابتها جاءت في هذا الموضع على أحسن ما يكون ، وهذا يدلُّ على ((التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه ؛ فالألفاظ لا النظم يلائم بعضها بعضاً وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريباً كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفاً كانت الألفاظ تناسبها))[٤١]، أضف على ذلك أنَّ الألفاظ الغريبة تتسم دائماً بالجدة والابتكار والخروج عن المألوف وكل ذلك مما يباغت المتلقي ويثير العجاب في نفسه، فيعمل على إثارته وشده لما يتضمنه من معنى ، ولو أنَّ النص _تسامجاً_ استعمل كلمة (كذباً) أحدى مصاديق الأفك ، لما أحدث هذه الالتفاتة التي كانت بمثابة الجرس الصارخ في أسماع المتلقي من شدة غرابة هذا اللفظ وما تضمنه من معنى كبير وهو (أسوأ الكذب))[٤٢]، وليس مجرد الكذب ، فضلاً عن ملاءمة اللفظ للسياق الذي تطلب ذلك ، وهذا كله مما يرفع من درجة إعلامية النص ويمنحه كفاءة إعلامية عالية .

ومن هنا نستطيع القول بأنَّ نصوص الخطاب المبارك لآيات الخلق قد حظيت بمعيار الإعلامية وبكفاءة عالية ، كان الغريب من الألفاظ إحدى أدواتها التي أسهمت بشكل كبير وواضح في شد انتباه المتلقي لأغراض النص ومقاصده ؛ وذلك بما تضمنه الغريب من كسر لتوقعات المتلقي وإحداث مبدأ الجدة والمفاجأة لديه ، بما تقدمه له من معلومات وأفكار جديدة ، الأمر الذي يدفع المتلقي إلى تدبر النص وتأمله وقراءته وفهمه _دون ملل أو كلل_ مما يؤدي ذلك إلى اكتمال دلالة النص لديه واستيعابه لها وهذا ما يقوده أيضاً إلى تقبل النص والعمل بمضامينه .

٢_ العدول :

قد يعدل منتجو النصوص عن استعمال المألوف لقواعد اللغة ، وهو ما يسميه دي بوجراند بـــ(غير القواعدية)[٤٣]، مما يولد هذا العدول بُعداً فنياً للنص ويزيده أبعاداً جمالية أخرى لها تأثيرها وإيحائها عليه ؛ ذلك أنَّ العدول هو الانتقال ((من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول))[٤٤]، وأنَّ الكلام إذا ((انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أدخل في القلب عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملاً باستدرار إصغائه))[٤٥].

ومؤدى ذلك أنَّ العدول يحقق فائدتين : **أحدهما عامة :** وهي إمتاع المتلقي وجذب انتباهه بتلك النتوءات والتحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير ، **والأخرى خاصة:** تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور _في موقعها من السياق الذي ترد فيه_ من إيحاءات ودلالات خاصة[٤٦]، وعلى هذا يكون العدول إحدى الظواهر الأسلوبية التي تعمل على إثارة المتلقي ولفت انتباهه بما في بنيتها اللغوية الخاصة من خروج غير متوقع وتحول عن مألوفة[٤٧]، وإنَّ هذه التحولات في السياق تفاجئ المتلقي وتثير دهشته لخروجها عن المتوقع لديه من إطراد السياق على نمط واحد

من المطابقة والمشاكلة[٤٨]، فالمتلقي الذي يثار وعيه عندما يفاجئ كسراً لنظام اللغة وتشويشاً لما هو ثابت في ذهنه ووعيه يتولد عنده إحساس بالدهشة والمفاجأة في اللامنتظر واللامتوقع ، وإنَّ هذا الإحساس يأسره ويشكل لديه لذة وطرافة وغرابة[٤٩].

من هنا تتولد إعلامية النص وتزداد ارتفاعاً من ذلك التحول الذي أحدثه العدول على مستوى البنية اللغوية للنص وما يرافقه من تحول على مستوى الدلالة أيضاً ، فضلاً عمَّا يحدثه العدول من المفاجأة وكسر المتوقع والخروج عن المألوف والرائج عند المتلقي كل ذلك يسهم وبشكل رئيس في تعزيز إعلامية النص .

ومن المصاديق القرآنية التي تبرز قدرة النص القرآني على انتهاك حدود اللغة المألوفة لدى المتلقي والتخطي إلى لغة تثير دهشته وتحثه على البحث وراءها ومحاولة سبر أغوارها ما ورد في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[الحج:٥].

المتأمل في سياق النص الكريم يجد أنَّ الخطاب المبارك قد استعمل خطاب الجمع في عموم أجزاء النص وذلك بقوله : (كنتم ، خلقناكم ، لنبين لكم ، نخرجكم ، لتبلغوا أشدكم) ولكنه يجد أيضاً أنَّ السياق قد عدل إلى خطاب الواحد في قوله : (طفلاً) ، وهذا عدول واضح وصريح وهو ما عبر عنه الدارسون بـــ(العدول العددي) الذي يعتمد على العدول أو الانتقال بين (الأفراد والتثنية والجمع)[٥٠]؛ إذ كان مقتضى الظاهر أن يقول (أطفالاً) كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥]؛ لأنَّ السياق سياق جمع لا إفراد ،

ولكنه عدل عن ذلك ، وقد فسَّر ابن جني (ت٣٩٢هـ) سر هذا العدول بقوله : ((ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أي أطفالاً ، وحسن لفظ الواحد هنا ؛ لأنَّ موضع تصغير لشأن الإنسان ، وتحقير لأمره ، فلاق به ذكر الواحد لذلك لقلته من الجماعة))[٥١].

ومن يتأمل الآيتين يلمس وجاهة رأي ابن جني ؛ وذلك لأنَّ المقصود باللفظة في آية الحج _حيث الإفراد_ من هم في مرحلة الطفولة أو الصغر فعلاً ، أما في الآية الثانية من سورة النور _حيث الجمع_ فأنَّ المقصود بها من تجاوز تلك المرحلة إلى مرحلة الرجولة أو الكبر ، هؤلاء الذين بلغوا الحُلُم فوجب عليهم الاستئذان[٥٢]، وهذا الرأي منطلق من القاعدة التي تنص على أنَّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى ((وأنَّ الإفراد قد يُختار للدلالة على معنى الوحدة أو التقليل أو التحقير أو التخصيص ، ويختار الجمع للدلالة على التعدد أو التكثير تبعاً لسياقهما))[٥٣].

وإذا كان ابن جني قد لحظ في إفراد (طفلاً) في سياقها من آية الحج معنى التقليل والتصغير ؛ فإنَّ بعض الباحثين المحدثين قد فطن إلى علة أخرى لهذا العدول حيثما ورد منفرداً في موضعه من آية الحج ، إذ تتحدث الآية المباركة عن الأطفال في عموم حالهم، وأول عهدهم بالحياة حيث يخرجون إليها، وقُبيل بلوغهم الحُلُم ((والأطفال في هذه الحال جمع عدد ، ولكنهم في فرد واحد حقيقة ومعنى مهما تعددن أشخاصهم وتباينت صورهم وألوانهم ، وتخالف آباؤهم وأمهاتهم ؛ لأنَّهم يتوحدون في سر الوجود وحكمة الخلق ، أليسوا جميعاً على الفطرة البيضاء لا يتخالفون فيها ولا يتفاوتون ؟ ... فالطفل إذن بلفظ الإفراد أحق بهذا المقام وأصلح له ؛ لأنَّه يوحي بأفراده ما لا يوحي بجمعه ، وينبه إلى ما لا ينبه الجمع إليه))[٥٤].

فالباحث يرمي إلى نكتة بلاغية رائعة تكمن في سرّ هذا العدول وهي أنَّ استعمال لفظة (طفلاً) هنا مكان لفظة (أطفال) لأنَّها لفظة موحية ومعبرة عن ذلك

المعنى الدقيق الذي تمخض عن خصوصية الاستعمال في هذا اللفظ ، فلفظ الواحد هنا (طفلاً) لأنَّ الأطفال كلهم في تلك المرحلة واحد من حيث الفطرة والسجية . وذلك على عكس المرحلة الأخرى التي عبر عنها الخطاب الحكيم بلفظ (الأطفال) في سورة النور ، إذ انتقل الأطفال ((من طور الطفولة الخالصة إلى طور التكليف والنزول على حكم الشرع في شؤون العبادة، وأحوال السلوك ، لقد أخذت شخصياتهم تتنوع ، وخصائص نفوسهم تتميز ، واستحقوا إذا ذكروا في أداء منسك أو ملابسة شعيرة أن يُذكروا بلفظ الجمع ، ويعاملوا معاملة الرجال في التكليف ... لأنَّهم وإن لم يبلغوا مبلغهم من نضج الشخصية واكتمال الرجولة _قد بعدوا من الفطرة وفقدوا وحدتها وسمتها وهي _لا غيرها_ الوحدة التي تجعل من جمعهم فرداً ، كما كانوا في حداثة العهد بالولادة والخروج من ظلام البطون))[٥٥].

يلحظ ممَّا ذكر مدى التركيز والالتفات الذي حققته البنية النصيّة للعدول في النص الشريف وذلك في دعوة المتلقي للوقوف والتأمل والتدبر في هذا اللفظ الذي كسر التوقع وخالف ما هو مألوف في السياق _إذ السياق سياق جمع لا إفراد_ وإذا باللفظ جيء به مفرداً ، ولو أنَّ اللفظ جيء به على المألوف لما أحدث هذه اليقظة في فكر المتلقي التي أدت إلى ((حسن التأني والتدبر والوعي بسياق الكلام ونوع المعنى ومقتضى السياق))[٥٦]، فالعدول كان إعمالاً لذهن المتلقي ورفعاً لإعلامية النص .

ومن مظاهر العدول أيضاً في الخطاب القرآني : العدول الحاصل بين الضمائر _وهو كثير في الخطاب_ ومن ذلك العدول من الغيبة إلى التكلم كما ورد في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت:٩_١٢].

يخبر الباري _عز اسمه_ في هذه البنية النصيّة عن مظاهر قدرته في خلقه وبديع صنعه ، وقد جاء هذا الأخبار في عموم هذه البنية المباركة باستعمال ضمير الغائب وذلك في قوله : (خلق ، وجعل، وبارك ، وقدر ، واستوى ، وقال ، وقضاهن ، وأوحى) ثم عدل السياق الكريم من الغيبة إلى التكلم في موضع واحد من النص في قوله : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) وكان مقتضى الظاهر أن يكون القول : (وزين السماء الدنيا) لكن السياق الشريف آثر هذه البنية (وزينا) للعدول ، ليحقق في ذلك إيقاظاً ولفتاً إلى مغزى مهم أراد إيصاله إلى المتلقي ؛ إذ لما كان السياق سياق إخبار عن قدرته تعالى في الخلق والإبداع فلمَ غاير بين الضمائر في الحديث نفسه ؟

من هنا تباين آراء المفسرين والبلاغيين في توجيه هذا العدول ، فيرى ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) أنَّ ((الفائدة من ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أنَّ النجوم ليست في السماء الدنيا ، وأنَّها ليس حفظاً ولا رجوماً ، فلما صار الكلام إلى هنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس ؛ لأنَّه مهم من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه))[٥٧].

فسبب العدول في رأي ابن الأثير عقائدي وأنَّ العدول من ضمير الغائب إلى ضمير التكلم أكثر دلالة على التأكيد والإقناع ، وذلك ((أنَّ السماء الدنيا وما فيها من كواكب من أظهر الآيات التي تشير إلى القدرة الخالقة التي يحث القرآن على النظر إليها كثيراً ، فقد حقق هذا الالتفات تجسيداً للموضوع الذي تؤخذ منه العبرة وتدنو الحقيقة الدالة من القلوب المعتبرة وتأمل _أيضاً_ إفادة الاهتمام والأخبار عن نفسه (عز وجل) فأنَّه جعل الكواكب لزينة السماء وتكذيباً لمن أنكر ذلك))[٥٨].

في حين يرى ابن عاشور أنَّ في هذا العدول تطرية ونشاطاً لذهن السامع ، مع العناية بتخصيص هذا الصنع إذ يقول : ((وقع الالتفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلم في قوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ تجديداً لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداءً من قوله : ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس ديناً ودنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيصه بالذكر من بين عموم ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾))[٥٩].

وآثر بعض الباحثين المحدثين سبباً آخر لهذا العدول فهو يرى أنَّ مرجعية هذا العدول تعود إلى المغايرة بين المحسوس وغير المحسوس والمشاهد وغير المشاهد ؛ فالأفعال في الآيات مسندة كلها إلى الخالق عز وجل غير أنَّ الأفعال السابقة على فعل الزينة في أفعال غيبية حدثت بالأزل البعيد ولا سبيل إلى الإقرار بنسبيتها إليه سبحانه إلَّا صدور الأخبار عنها منه تبارك علاه ، أمَّا فعل الزينة فأنَّه بآثاره المشاهدة وعجائبه المرئية في صفحة السماء ماثل للحس جلي للعيان ، لا يمارى في نسبته إلى الخالق عز وجل إلامكابر لجوج ، ومن ثمَّ فأنَّ العدول في إسناد هذا الفعل عن الغيبة إلى التكلم حفزاً للهمم ولفتاً للأنظار وإلى تأمل آثاره والتفطن لعجائب صنع الله فيها ، إذ إنَّ هذا التأمل هو طريق الإقناع المطمئن والتسليم بنسبة الأفعال المذكورة كلها _لا فعل الزينة وحده_ إلى الخالق (عز وجل) قياساً للغائب منها على الحاضر والخفي المستور على المحسوس المشاهد[٦٠].

يلمس من رأي هذا الباحث أنَّ هذا العدول له دلالة معنوية إذ الغرض منه أن يستدل بالمحسوس المشاهد من خلق الله وصنعه ، على إثبات ما ليس محسوساً وغير مشاهد ، من أمور الغيب التي أخبر الله تعالى عنها ، ولعل ما ذكره الباحث من رأي هو منهج رائج وسائد في الدراسات البلاغية والعقلية[٦١].

وهناك آراء أخرى ترى لهذا العدول أسباباً وغايات لا يسع المقام لذكرها[٦٢]؛ إذ ما يهمنا في هذا المقام هو الإشارة إلى ما قام به هذا العدول من إثارة فضول المتلقي واسترعاء انتباهه وجعله يمعن النظر مراراً وتكراراً فيما أحدثه العدول من مغايرة في السياق ، وكسر ما هو متوقع عند المتلقي ، وشكَّل عنصر المفاجأة لديه وجذبه للأصغاء والاستماع ، وجعله متلهفاً لمعرفة السبب ، فهذه المغايرة في السياق عملت على رفع إعلامية النص ، وفتحت الآفاق أمام المتلقي لتأمل المعنى المُراد والوصول إلى ما هو مطلوب بأدق شكل .

ومن صور العدول أيضاً ما نراه في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠_٣٣].

يتجلى العدول في النص الكريم بالانصراف من التكلم إلى الغيبة _على عكس ما حصل في النص السابق_ وهذا ما نراه جلياً في استعمال الخطاب المبارك لجمله (جعلنا) في جميع أجزاء النص عدا الجزء الأخير منه ، وذلك بالعدول إلى ضمير الغائب في قوله: **(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ)** ، هذا وقد يؤثر السياق هذا النمط من التعبير لإفهام السامع أنَّ القصد من الكلام لا يتلون حضر أو غاب فلا يكون المضمر ونحوه ذا لونين ، فالقصد من انتقال الأسلوب من التكلم إلى الغيبة هو الإبقاء على المخاطب والاعتناء بفحوى الخطاب ومن هنا يكون العدول في قوله : ((**(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)** الذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التي هم هنها

معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام ، أي هو الذي خلقهن وحده))[٦٣]، فهذا العدول الحاصل في السياق الكريم هو تأكيد للمتلقي على أن ما سبق ذكره من خطاب بطريقة التكلم وما تضمنه العدول الحاصل بطريقة الغيبة هو أمر واحد ، وما هذا العدول إلَّا ((تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم وذلك بأنَّه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبصروا فيه في معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أي جعل الشمس آية النهار والقمر آية الليل))[٦٤].

في حين يعتقد بعض الدارسين أنَّ سبب العدول في النص يرجع إلى المخالفة بين اللفت إلى الشكل المحسوس الذي يبديه الحس المستبصر في الآيات التي تضمنت الفعل (جاء) وإلى اللفت إلى ما يكمن خلف هذا الشكل من حكم وأسرار في الآية التي تضمنت الفعل (خلق)[٦٥]، ولعل ما أشار إليه هذا الباحث هو ما كان يرمي إليه الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) بقوله : ((ولما كان إيجاد الليل والنهار ليس على نمط إيجاد الحيوانات وإيجاد الرواسي لم يتحد اللفظ الدال على ذلك بل جيء بالجعل هناك وبالخلق هنا كذا قيل وهو كما ترى))[٦٦].

وبناءً على ذلك نستطيع القول بأنَّ نكتة العدول عن ضمير المتكلم في قوله : (جعلنا) إلى ضمير الغيبة في قوله (خلق) هي ملاءمة طريق المتكلم (وهو قرين الحضور والمشاهدة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيات التي تضمنت الفعل (جعل) وملاءمة طريق الغيبة (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلائية هذا الاستدلال في الآية التي تضمنت الفعل (خلق)[٦٧]، ((فمع الفعل (جعل) كان لفت الأنظار إلى المشاهد المحسوسة في الكون من شموخ الجبال وسعة الطرق وارتفاع السماء ، أمَّا مع الفعل (خلق) فلم تكن المشاهد المحسوسة هي محل التأمل في خلق الليل والنهار من نور وظلمة ، وإنَّما كان التركيز على غير المحسوس والمشاهد من

شأن القدرة العجيبة التي يتعاقب بها الليل والنهار وهنا يظهر التناسب المعنوي في العدول المعجمي في الأفعال مع العدول في الضمائر))[٦٨].

ومن هنا يظهر أنَّ ارتداد المخالفة بين ضميري التكلم والغيبة يرجع إلى المخالفة بين المشاهد المحسوس والخفي غير المحسوس ، كما يظهر أنَّ عنصر الغياب والظهور يؤدي دوراً خاصاً في استعمال هذه الضمائر بحسب ما يتطلبه سياق كل آية ، وإنَّ إدراك هذا الأمر يتطلب من المتلقي جهداً بليغاً فعليه أن يسبح بذهنه ويعمل فكره للوصول إلى ما يتضمنه هذا النوع من العدول من مغزى ؛ كونه أمر غير متوقع ، فالعدول يعمل إذن على إيقاظ السامع وتنبيهه للبحث عن الغاية ؛ كونه أساساً يستند إلى عدم التوقع وهذا ما يرفع من درجة إعلامية النص ويمنحه كفاءة إعلامية عالية ، وعليه يمكن القول بأنَّ العدول يشكل إحدى آليات الإعلامية بما يمثله من ((خروج عن أصل أو مخالفة لقاعدة))[٦٩]، الأمر الذي تستند عليه الإعلامية أصلاً ممَّا يؤدي ذلك إلى كسر ما هو متوقع لدى المتلقي وإضفاء صفة الجدة على التعبير ؛ لأنَّه ((مورد من موارد التأنق في الأسلوب))[٧٠]، وهذا ما يمنح النص بُعداً معنوياً متمثلاً في تدقيق الدلالة ، وبُعداً فنياً يظهر في إضفاء الغموض الفني على العبارة ، كما يمنح النص بُعداً تداولياً ؛ إذ يكشف عن حال المتلقي وعن السياق الناظم للتواصل[٧١].

كما يمكن القول أيضاً بأنَّ معيار الإعلامية في الخطاب القرآني لآيات الخلق قد تحقق ، وأنَّها إعلامية ذات كفاءة عالية ومرتفعة ؛ كون الخطاب المبارك قد لجأ إلى كسر توقعات المتلقي واستمالته نحو النص وذلك باستعماله بعض الألفاظ غير المعتادة ، واعتماده صياغات غير مألوفة عمدت على أسر المتلقي وجعله يسبح في أفق النص متشوقاً ملهوفاً لمعرفة ما يكتنزه من دلالات وما يخفيه من أسرار ومعانٍ

، دون ضجر أو ملل وكل ذلك لما تتضمنه الإعلامية من الجدة وحِدة المفاجأة في التعبير، فالنفس تسأم البقاء على أسلوب واحد وتميل إلى التغيير والتجديد دائماً ، وهذا ما يؤدي بدوره إلى التفاعل بين النص والمتلقي وبذلك تكتمل عملية التواصل ويتحقق ما يرمي إليه منتج الخطاب من قصد وغاية يسعى إلى إبلاغها .

الهوامش :

(١) مدخل إلى علم لغة النص : ٣٢_٣٣ .
(٢) النص والخطاب والأجراء : ٢٤٩ .
(٣) البيان والتبيين : ٦٢/١ .
(٤) علم لغة النص النظرية والتطبيق : ٦٨ .
(٥) يُنظر : خمريات أبي نؤاس دراسة في ضوء علم اللغة النصي ، علي كريم عيدان (رسالة) : ٩_١٠ .
(٦) يُنظر : الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب : ١٠١ .
(٧) يُنظر : نظرية علم النص : ٦٦_٦٨ .
(٨) يُنظر : المصدر نفسه : ٧٠ .
(٩) النص والخطاب والإجراء : ١٠٥ .
(١٠) الأسلوب والأسلوبية : ٨٦ ، ويُنظر : تجليات الإعلامية في شعر تميم البرغوتي (مقاربة في ضوء لسانيات النص) ، د. فلاح عبد الله (بحث) : ٩٧ .
(١١) مدخل إلى علم اللغة النصي : ٩٤ .
(١٢) الإعلامية في الخطبة الشقشقية (دراسة في ضوء لسانيات النص) ، رحيم مجيد راضي (بحث) : ٢٦٠.
(١٣) يُنظر : النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥_٢٥٦ ، ونظرية علم النص : ٧٦.
(١٤) يُنظر : نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٨٦ ، ومدخل إلى علم الاتصال ، منال طلعت محمود : ١٧٥ .
(١٥) الإعلامية أبعادها وأثرها في تلقي النص (دراسة نظرية تحليلية) ، محمد عبد الرحمن إبراهيم (أطروحة) : ٧.

(١٦) المصدر نفسه : ٢٧ .
(١٧) الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب : ١٠٣ .
(١٨) مدخل إلى علم اللغة النصي : ٩٤ .
(١٩) يُنظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني : ٩٦ .
(٢٠) ظاهرة التمرد في القرآن الكريم دراسة في ضوء لسانيات النص : ١٦٩ .
(٢١) البيان والتبيين : ٦٢/١ .
(٢٢) غريب الحديث ، الخطابي : ٧٠/١_٧١ .
(٢٣) معجم مصنفات القرآن الكريم ، د. علي شواخ إسحاق : ٢٩١/٣.
(٢٤) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ، أبو حيان الأندلسي : ٤٠ .
(٢٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٧١ .
(٢٦) يُنظر : الكشاف : ٦٩٦/٤ ، والتحرير والتنوير : ٨٥/٣٠ .
(٢٧) مباحث في إعجاز القرآن ، د. مصطفى مسلم : ١٤٧ .
(٢٨) يُنظر : الجرس الصوتي دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن ، د. ياسر علي عبد الخالدي (بحث) : ٥٧ .
(٢٩) الإعلامية في الخطبة الشقشقية (دراسة في ضوء لسانيات النص) : ٢٧٠ .
(٣٠) يُنظر : النص والخطاب والإجراء : ٢٤٩ .
(٣١) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية : ٢١ .
(٣٢) تفسير القرآن ، ابن قتيبة : ٢٣ .
(٣٣)
(٣٤) ديوان ذي الرمة ، تحقيق : أحمد حسن بسبح : ١٠ ، ١٢ .
(٣٥) يُنظر : لسان العرب ، مادة (حوا) : ٢٠٦/١٤ .
(٣٦) الإعلامية في الخطاب القرآني دراسة في ضوء نظرية التواصل : ٤٠ .
(٣٧) يُنظر : جامع البيان في تأويل القرآن : ١٨/٢٠_١٩ .
(٣٨) المصدر نفسه : ١٩/٢٠ ، ويُنظر : معالم التنزيل : ٢٣٦/٦ .
(٣٩) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب : ٤٦ .
(٤٠) يُنظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٤١٢/١٤.
(٤١) مباحث في إعجاز القرآن : ١٤٣ .
(٤٢) تفسير غريب القرآن ، محمد بن إسماعيل الصنعائي : ٩٧ .

(٤٣) مدخل إلى علم لغة النص : ١٧٥ .

(٤٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي : ٣٢/٢.

(٤٥) أسوار الربيع في أنواع البديع ، علي صدر الدين بم معصوم : ٣٦٣/١.

(٤٦) يُنظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، حسن طبل : ٢٦ .

(٤٧) المصدر نفسه : ٢٧ .

(٤٨) يُنظر : العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، عبد الله على الهتاري (أطروحة) : ٢ .

(٤٩) يُنظر : الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها : ٥٦ .

(٥٠) يُنظر : من أساليب التعبير القرآني (دراسة لغوية أسلوبية في ضوء النص القرآني) ، طالب الزوبعي : ٧ .

(٥١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان بن جني : ١٧/٢ .

(٥٢) يُنظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٩٣ .

(٥٣) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، د. أحمد سعد محمد : ١٥٩ .

(٥٤) مع القرآن في دراسة مستلهمة ، علي النجدي ناصف : ١١٠ ، ويُنظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ١٦١_١٦٢.

(٥٥) مع القرآن في دراسة مستلهمة : ١١١_١١٢ .

(٥٦) من أساليب التعبير القرآني : ١٠٢ .

(٥٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد : ٨/٢.

(٥٨) من أساليب التعبير القرآني : ١٠٣ .

(٥٩) التحرير والتنوير : ٢٥١/٢٤ .

(٦٠) يُنظر : أسلوب الالتفات في البلاغة العربية : ١١٢ .

(٦١) يُنظر : أساليب البيان في القرآن ، جعفر السبحاني : ٢٧١_٢٨٤ .

(٦٢) يُنظر : البرهان في علوم القرآن : ٣١٩/٣_٣٢٢.

(٦٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٦٥/٦_٦٦ .

(٦٤) فتح القدير : ٤٧٩/٣ .

(٦٥) يُنظر : دراسة ضمير الغيبة والتكلم في القرآن الكريم وإبلاغية الالتفات منهما إلى الله ، د. علي رضا محمد رضائي (بحث) : ٦٩ .

(٦٦) روح المعاني : ٣٨/٩ .

(٦٧) يُنظر : دراسة ضمير الغيبة والتكلم في القرآن الكريم : ٦٩ .

(٦٨) العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم : ٨٩ .

(٦٩) البيان في روائع القرآن : ٣٤٧ .

(٧٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٧١) يُنظر : دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم ، عبد الناصر مشري (أطروحة) : ٣٧ .

المصادر

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : الكتب المطبوعة :

- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ، أبو السعود العمادي (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .
- **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية** ، حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨م، (د.ط) .
- **الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية** ،فتح الله أحمد سليمان ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م .
- **الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها** ، موسر ربابعة ، دار الكندي ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٣م.
- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، ط٩، ١٩٧٣م.
- **الإعلامية أبعادها وأثرها في تلقي النص (دراسة نظرية تحليلية)** ، محمد عبد الرحمن إبراهيم ، دار الثقافة والإعلام ، الشارقة _ الأمارات ، ط١ ، ٢٠٠٨م.
- **أنوار الربيع في أنواع البديع** ، علي صدر الدين بم معصوم (ت١١٢٠هـ)، تحقيق : شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط١، ١٩٦٨م.

- **البرهان في علوم القرآن** ، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (ت٧٩٢هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٥٧م.
- **البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني** ، تمام حسّان ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٩٩٣م.
- **البيان والتبيين** ، عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، دار الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ، (د.ط) .
- **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)** ، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٨٤م.
- **تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب** ، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق : سمير المجذوب ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣م .
- **الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب** ، خليل بن ياسر البطاشي ، دار جرير ، ط١ ، ٢٠٠٩م .
- **تفسير غريب القرآن** ، ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق : أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م ، (د.ط) .
- **تفسير غريب القرآن** ، محمد بن إسماعيل الصنعائي (ت١١٨٢هـ)، تحقيق : محمد صبحي حسن الحلاق ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٠م .
- **التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية** ، د. أحمد سعد محمد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت) .
- **جامع البيان في تأويل القرآن** ، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ.
- **ديوان ذي الرمة** ، تقديم وشرح : أحمد حسن بسبح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م.

- **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني** ، شهاب الدين الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ .
- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب الخديوية ، ١٩١٤م ، (د.ط) .
- **علم لغة النص النظرية والتطبيق** ، عزة شبل محمد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م.
- **فتح القدير** ، محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١، ١٤١٤هـ .
- **الكشاف عن غوامض التنزيل** ، أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ .
- **لسان العرب** ، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ .
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها** ، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق : علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شلبي ، لجنة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٤م، (د.ط) .
- **مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت دي جراند ولفجانج دريسلر** ، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط١ ، ٢٠١٣م.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن** ، أبو محمد البغوي (ت٥١٠هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ.

- **من أساليب التعبير القرآني (دراسة لغوية أسلوبية في ضوء النص القرآني)** ، طالب الزوبعي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت١٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار العربي الإسلامي ، ط٣ ، (د.ت).
- **نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي** ، أحمد عفيفي ، مكتبة الزهراء الشرق، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م .
- **النص والخطاب والإجراء** ، روبرت دي جراند ، ترجمة تمام حسّان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م .
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، إبراهيم البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت) .

ثالثاً : **الرسائل والأطاريح الجامعية** :

- **الإعلامية في الخطاب القرآني دراسة في ضوء نظرية التواصل** ، زهراء جياد عباس (**أطروحة دكتوراه**) ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١٤م .
- **خمريات أبي نؤاس دراسة في ضوء علم اللغة النصي** ، علي كريم عيدان (رسالة ماجستير) ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠١٦ .
- **دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم** ، **عبد الناصر مشري**(أطروحة دكتوراه) ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الحاج الخضر ، ٢٠١٤ .
- **ظاهرة التمرد في القرآن الكريم دراسة في ضوء لسانيات النص**، إيمان مطر مهدي (رسالة ماجستير) ، كلية التربية للبنات ، جامعة الكوفة ، ٢٠١٩م .
- **العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم** ، عبد الله على الهتاري ، (رسالة ماجستير) ، جامعة اليرموك ، كلية الآداب ، ١٩٩٩م .

رابعاً : **المجلات** :

- **الجرس الصوتي دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن** ، د. ياسر علي عبد الخالدي وكاظم صافي حسين الطائي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، جامعة بابل ، العدد ١٨ ، ٢٠١٤م.
- **الإعلامية في الخطبة الشقشقية (دراسة في ضوء لسانيات النص)** ، رحيم مجيد راضي ، مجلة محور الدراسات العربية ، العدد ٢٠ .